« ( ) »

AL-ZMAN

Chronica of Agonistic
Jewish Islamic Thought

هرطقة أم همجية

أنوش غنجيبور

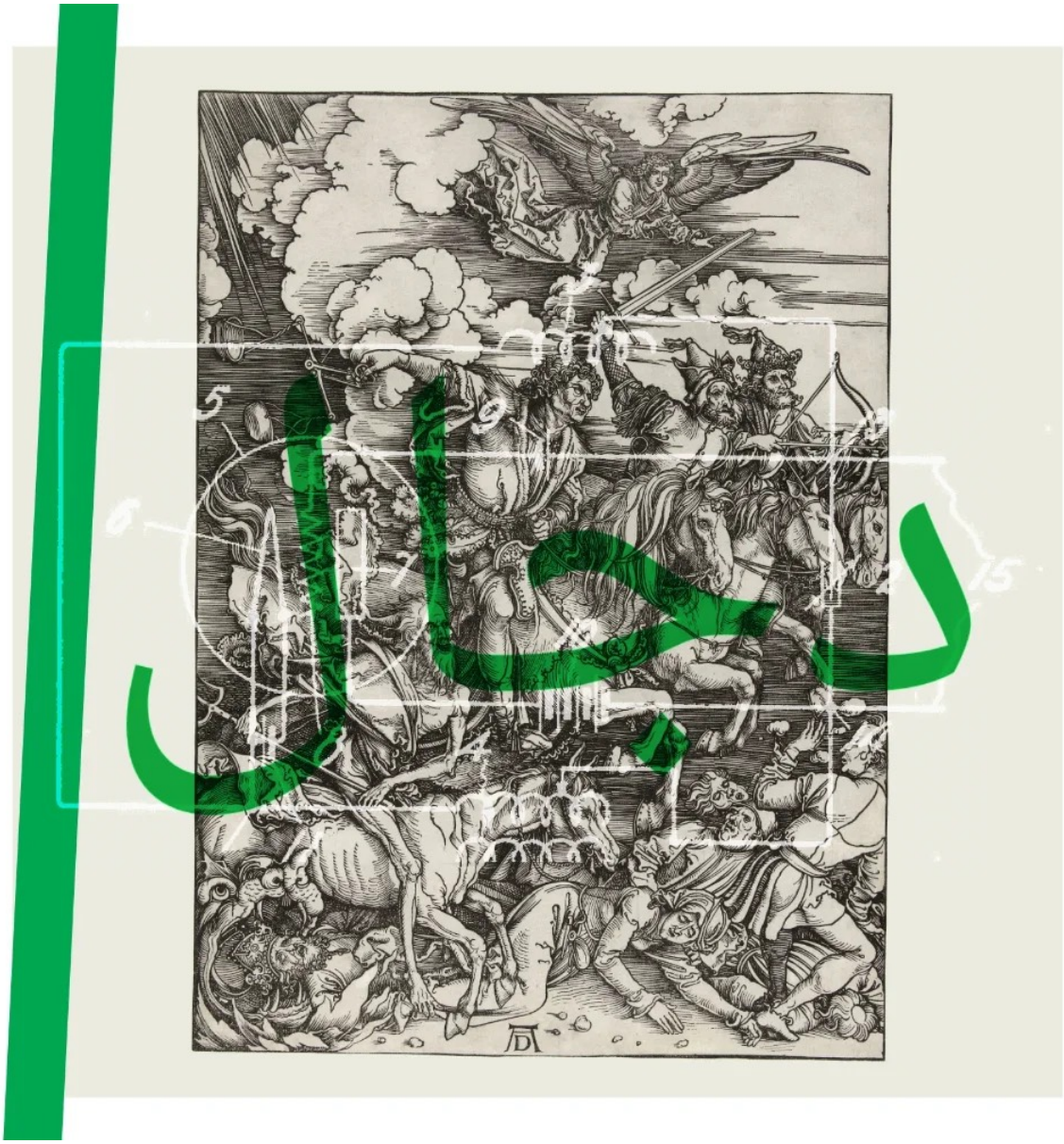

https://al-zman.org/heresie-ou-barbarie

هرطقة أم همجية

أنوش غنجيبور

أزمة: يبدو أن هذه الظاهرة، بل والمصطلح نفسه، يميزان وقتنا التاريخي وعصرنا الحديث. ومع ذلك، فإن تكرار استخدام هذا المصطلح قد أدى إلى نوع من الابتذال، مما جعله عبارة متكررة. لكي يمضي التاريخ قدماً وينتقل من عصر إلى آخر، لا بد من حدوث الأزمات، باعتبارها نقطة الانطلاق أو المحور الذي يدار حوله. ومع ذلك، فكلما تكاثرت الأزمات في عالمنا، كلما أصبحت طبيعتها أمراً عادياً، مما يحجب أسسها الحرجة ووظيفتها الحقيقية، ويجعلها تبدو وكأنها تظهر وتختفي دون أن تحمل أهمية خاصة لعصرنا – دون أن تشكل تحدياً حقيقياً لنا، ودون أن تغير مسار التاريخ بشكل ملموس، بغض النظر عما إذا كان هذا المسار يميل نحو التقدم أو الانحدار. اليوم، ينتقل المواطن العالمي من أزمة إلى أخرى على إيقاع التقليب (سكرولينغ)، ولا يأخذ الأزمات على محمل الجد إلا إذا كان لها تأثير مؤسف على مستوى معيشته، هذا التأثير، مما لا شك فيه، يتكرر بشكل متزايد. قد تؤثر المذابح والحروب والإبادة الجماعية ومآسي الهجرة والأوبئة والكوارث الطبيعية على الفرد بدرجات متفاوتة؛ ولكن لكي تُعتبر هذه الأحداث أزمات بالمعنى التقليدي للكلمة، لا بد من ترجمتها إلى مصطلحات مالية أو إلى لغة السوق. أحدث مثال على ذلك هو «أزمة النفط» الحالية.

بعيدًا عن الآثار المالية البحتة، فإن ما يجري منذ 7 أكتوبر 2023 في الشرق الأوسط والغرب، بل وفي العالم أجمع، يحمل في طياته دلالة أزمة حقيقية بالنسبة لنا. هذا التصريح هو نقطة انطلاق منتدى «الزمن» و برنامجنا البحثي. غير أن هذا التصريح بالذات لا يمكن أن يُمنح هذا الدور إلا إذا أجبنا عن الأسئلة الثلاثة التي ينطوي عليها: ما هي الأزمة؟ وما الذي يميز الأزمة التي نعيشها؟ ومن نحن؟

على الرغم من أن الأزمة، من الناحية الدقيقة، لا يمكن اختزالها بمجرد أبعادها المالية، إلا أنها تُحدث نوعًا من الترجمة. يحدث هذا عندما يتحول عدد الضحايا، أو حجم الكارثة، أو مدى الضرر إلى قفزة نوعية في الوعي. إن الواقع المرير للأحداث، بقسوته ووضوحه، يُشكل عتبة في كيفية تصورنا للعالم وتعاملنا معه. وبذلك يضفي كثافة غير مسبوقة، وإلحاحاً مصيرياً، على الأسئلة التي يطرحها علينا هذا العالم – أو علاقتنا به. لم يعد من الممكن تجاهل هذه الأسئلة أو قمعها، أو التحايل عليها من خلال التنازلات مع الوضع الراهن؛ ولا يمكن الإجابة عليها بتعديلات مؤقتة. فالحالة الحرجة للعالم تجد نظيرتها في الحالة الحرجة لوعينا وفكرنا. وتحدث الأزمة عندما تحدث الدارة القصيرة شرارة بين هاتين الحالتين.

إن الخروج من هذا الوضع يتطلب، إذن، التحلي بالشجاعة لمواجهة أسئلتنا الجوهرية؛ لا لتعليقها، بل لصياغتها بوضوح أولاً والتوصل إلى إجابات جلية عنها، مع حسم الأمر واتخاذ قرارٍ ما. وهذا يعني أن كل أزمة -لكي تكون كذلك- تشكل لحظةً للمساءلة؛ لحظةً تتحول إلى ما يشبه المحكمة بقدر ما تضع المعنيين بها أمام استحقاق القرار والاختيار وإصدار الحكم، وهي لحظة يمر بها كل فرد وكأنه مَثُلَ أمام محكمة التاريخ، وإن كان تاريخاً بحرف صغير (أي تاريخاً خاصاً أو محلياً)!

لا أحد يدرك ما هو على المحك حقاً في لحظة كهذه، أو يدرك طبيعة المخاطر الحقيقية المحدقة بها، بقدر ما يدركه الذين عاصروا الأزمات الكبرى في الماضي؛ وهو ما ينطبق تماماً على حالة "هانا أرندت". إذ ترى أرندت أن الأزمة تجعل الكارثة الوشيكة رهن خيارٍ جوهري يُتخذ في الحاضر؛ فإما أن يختار المعنيون بالأمر المضي قدماً على النهج ذاته والتصرف وكأن شيئاً لم يحدث – أي الاستمرار في الرد على أسئلة بلغت مرحلة حرجة ومتأججة باستخدام أفكار جاهزة، وأحكام مسبقة، وقوالب نمطية مبتذلة – وإما، على النقيض من ذلك، أن يواجهوا الحقيقة الدامغة بأن هذا الأسلوب في التعاطي مع الأسئلة سيؤدي إلى نتائج معاكسة تماماً، بل سيكون السبيل الأضمن لتهيئة الظروف المواتية لوقوع الكارثة الكبرى وتفاقم عواقبها.[1]

وهكذا، فإن هذا الخيار يمسّ جوهر الأسئلة التي تضعنا الأزمة في مواجهتها؛ إذ إنها اللحظة التي يتطابق فيها الاختيار بين ما هو عادل وما هو غير عادل – بل ويندمج – مع القرار المتعلق بمعنى كلٍّ منهما. ولا يقتصر الأمر على كون هذا الخيار وسيلةً لتجنب الخسارة أو تحقيق الخلاص، بل إنه ينطوي في آنٍ واحد على تحديد معنى المعضلة ذاتها ومعالمها. وكما نرى، فإن هذا الخيار يتسم بطابع موضوعي بقدر ما يتسم بطابع ذاتي؛ ففي أوقات الأزمات، يُعد كل اختيار يتعلق بالأسئلة، وكل قرار بشأن معناها أو الإجابة عنها، بمثابة اختيار وجودي في حد ذاته، وقرارٍ يحدد المعنى الذي يمنحه المرء لحياته الخاصة.

* * *

ما هي الأسئلة التي نتحدث عنها بالضبط؟ يقودنا هذا التساؤل إلى خصوصية أزمتنا - تلك التي تتكشف بين 7 أكتوبر والحرب الحالية التي تشنها الولايات المتحدة وإسرائيل ضد إيران. الآن، ترتبط هذه الأزمة ارتباطًا وثيقًا بالإسلامية واليهودية والمسيحية؛ وبجميع العناصر المتنوعة والمتباينة، بل والمتناقضة – بما في ذلك العناصر العلمانية – التي ارتبطت تاريخيًا بكل من هذه الصفات الثلاث. وبشكل أكثر دقة، فإنها تشمل الإسلام واليهودية بشكل مباشر، والمسيحية من بعيد، كخلفية لها.

وإذا ما تبنينا هذا المنظور، فإن قراءة الأزمة تصبح مختلفة: فهي تكمن في العلاقة التي تربط اليوم بين الإسلام واليهودية والمسيحية من جهة، والسياسة بالمعنى الحديث للكلمة من جهة

[1] Hannah Arendt, *La crise de la culture*, Gallimard (Folio), p. 225.

أخرى. وهي علاقة تتخذ بالتأكيد ثلاثة أشكال مختلفة، لكنها في كل حالة من الحالات تشكل بناءً داخليًا للحداثة، تشكّلت عبر مسار تاريخي طويل. وإذا كانت هذه العلاقة هي أساس هذه الأزمة، فذلك لأنها في حد ذاتها علاقة نقدية عميقة.

أولاً، هناك حقيقة مفادها أنه في ساحة صراع تمتد من غزة إلى باريس وبرلين ونيويورك مروراً بالقدس وبيروت وطهران، لم يظهر دور الدين المفرط الحتمية أبداً بهذه الوضوح في الحرب والسلام، ولا في السياسة بحد ذاتها. لم يعد بإمكان البادئة «المفرط» أن تضللنا، وهذه بالضبط إحدى عواقب هذه الأزمة. فهي أزمة لاهوتية بقدر ما هي سياسية، لا سيما فيما يتعلق بالديانتين الأكثر ارتباطاً بها بشكل مباشر – الإسلام واليهودية. وما يبدو أنه مواجهة متفجرة بينهما يعبّر قبل كل شيء، عن العلاقة القائمة بين اللاهوتي والسياسي داخل كلتا الديانتين؛ وهي علاقة أصبحت إشكالية و بالغة الحرج في الديانتين.

غير أن ثمة درساً هاماً تفرضه هذه الأزمة – وهو ما أشرتُ إليه للتو – يتمثل في الكشف عن عدم الكفاية بالإشارة إلى الدين، أو اليهودية، أو الإسلام، أو حتى المسيحية، بوصفهم مجرد أديان متعددة، وذلك في محاولة لتفسير ظاهرةٍ تُعدّ – عند النظر في كافة جوانبها – ظاهرةً حديثة العهد، ومتقلبة، ومتعددة الأبعاد، وهي ظاهرة يستعصي فهمها – خاصةً في اللحظة التي نحاول فيها استجواب تشابكها مع السياسي والاجتماعي. ولذا، فإنني أُفضّل وصفها بثلاثة مصطلحات: "الإسلامي"، و"اليهودي"، و"المسيحي". وهذا الاستخدام يُذكّرنا، قبل كل شيء، بالمعاني المتباينة التي يكتسبها مفهوم "الدين" في كل من الإسلام واليهودية والمسيحية على حدة، وذلك بصرف النظر عن الأساس التوحيدي المشترك بينها أو النموذج الإبراهيمي للإيمان الذي تتشارك فيه هذه الأديان.

وعلى نطاق أوسع، فإن الاستفادة من هذه الصفات الموضوعية تساعدنا على تفكيك الأبعاد الخفية للظاهرة بشكل أفضل وفهم الترابط بينها. وهي تشكل معًا أداة مفاهيمية ربما تكون أكثر ديناميكية وملاءمة، مما يسمح لنا بفهم كيف تتجاوز "الحقيقة" الإسلامية أو اليهودية أو المسيحية الإطار البسيط لمعتقد أو شكل من أشكال العبادة، أو اللاهوت، أو نمط الحياة، أو الانتماء لهوية، أو حتى التقليد الفكري - الذي يشمل كل هذه الأمور في وقت واحد.

فيما يتعلق بأزمتنا بشكل مباشر، يمكن لهذه الأداة أن تساعدنا على التمييز بشكل أكثر وضوحًا بين المخطوطة المسيحية المخفية وراء الدولة والأمة والمجتمع وسياسات العصر الحديث، وتفسير استمرارية تأثيرها. ومن خلال هذه الأداة، ينبغي لنا إعادة النظر في مساهمة العنصر اليهودي والإسلامي -سواء على الصعيد التاريخي أو الأثري - في تشكيل مفاهيم الحداثة أو مكوناتها؛ كما ينبغي لنا أن نتناول مجدداً، ولكن من زاوية أخرى, تلك المسألة الشائكة المتعلقة بمدى توافقهما مع هذه المفاهيم، وحدود ذلك التوافق وآلياته.

لا بد من التساؤل عن كيف صاغت القومية – وهي مفهوم حديث – علاقتها باليهودية والإسلامية. إن الاستعمار ومقاومة الاستعمار، والهجرة والمنفى، والاندماج والانفصالية، ومعاداة السامية، ومعاداة الصهيونية، ورهاب الإسلام (الإسلاموفوبيا)؛ كل هذه الأمور لا ترتبط باليهودية والإسلام كديانات وتقاليد وما إلى ذلك، بقدر ارتباطها بـ "اليهودية" و"الإسلامية" باعتبارهما وصفين.

ما يميز الأزمة الحالية هو أنها تضعنا أمام أسئلة تتعلق، في المقام الأول، باليهودية والإسلامية. كما أن القرار الذي تجبرنا على اتخاذه يتعلق بمعنى هذه الأسئلة والإجابات التي سنقدمها لها.لم يعد أمامنا خيار؛ فكل شيء بات موضع تساؤل لا شيء أكثر قصوراً أو تقادماً - وقبل كل شيء، أكثر إتياناً بنتائج عكسية - من تجاهل أهمية الملحة لهذه الأسئلة، ومن الاعتقاد بإمكانية الرد عليها عبر استحضار الحجج ذاتها التي استُخدمت سابقاً.

* * *

من بين الأسئلة الكثيرة التي تتكشف أمامنا على هذا النحو، يبرز سؤالٌ يتصل بالأزمة بشكلٍ جوهري؛ إذ إنه ينخرط في جوهرها، وهو جوهر زمني. إنه سؤالٌ يتعلق بالعلاقة التي تربط كل من "الإسلامية" و"اليهودية" و"المسيحية" مع الزمن وما هو زمني؛ مما يعني وجود صلة عميقة بينها وبين "المسيانية"(الخلاصية) بأشكالها الثلاثة: الإسلامية واليهودية والمسيحية. ويُطرح علينا هذا السؤال بالصيغة التالية: أين نقف اليوم في خضم هذه الأزمة وفي قلب الحرب الدائرة إزاء الرؤى المسيانية اليهودية والمسيحية والإسلامية؟ وتكتسب هذه الرؤى أهميةً خاصة وتصبح موضع تساؤلٍ ملحٍّ بقدر ما تتقاطع فيما بينها، وبقدر ما تتقاطع جميعها مع النمط الحديث والعلماني للزمنية؛ لتشكل مجتمعةً هذه الأزمة بوصفها لحظةً تاريخيةً مشتركةً بيننا جميعاً.

تُثير الحرب ذاتها ،سواء لدى المنتصرين أو المهزومين، أزمةً فوريةً في تصورهم للمستقبل المسياني (الخلاصي). ففي نظر الصهيوني المتدين، يُمثّل الهجوم المظفّر الذي شنّته "الدولة اليهودية" عتبةً حاسمةً نحو التأسيس الوشيك للمُلك المسياني. أما الشيعي المؤمن بالعقيدة المهدوية -الذي كان مقتنعاً سابقاً بالرسالة الخلاصية للجمهورية الإسلامية- فيرى الآن في الاحتمال الواقعي لهزيمة تلك الدولة عينها أوضحَ علامةٍ إلهيةٍ على اقتراب نهاية الزمان وبشارةً بالظهور المظفّر للمُخلِّص، أي الإمام الغائب. وبالنسبة للإنجيلي الأمريكي، فإن كلاً من انتصار دولة إسرائيل وانهيار الدولة الإيرانية يخدمان المخطط الإلهي في مرحلته النهائية وفقاً للمنظور المسياني المسيحي؛ إذ يُنظر إلى ما يُفترض أنه إسهامٌ يهوديٌ وإسلاميٌ في الفوضى العارمة التي يُنبئ تزامُنُها الاستثنائي بقرب عودة المسيح الملك على أنه جزءٌ لا يتجزأ من هذا المسار.

إن هذا الاضطراب الجديد، الذي طرأ على الأطر الزمنية للرؤى المسيانية الثلاث، لا يعدو كونه أثراً سطحياً مقارنةً بالتجذر العميق للأزمة الراهنة في صلب هذه الرؤى للعالم؛ فثمة فرقٌ

جوهري بين أزمةٍ تقع في نطاق هذه الرؤية المسيانية أو تلك، وبين أزمةٍ مسيانيةٍ في حد ذاتها وهي الأزمة التي نمر بها حالياً ؛ إذ نعيش زمناً يجد فيه كلٌّ من اليهودي والمسلم والمسيحي والإيراني والغزي والفلسطيني والعربي والإسرائيلي نفسه وقد أصبح هو المسيح الدجال بالنسبة للآخر. وتُعد هذه الأزمة، في جوهرها، أزمةَ كل أولئك الذين يكتشفون أنهم يمثلون " المسيح الدجال" في نظر جارهم.

هنا يكمن الجوهر المسياني لأزمتنا، وهنا أيضاً ما يعيدنا إلى المفهوم الأصلي للأزمة في الأديان الإبراهيمية. وهكذا، يتضح أن أزمتنا هي أزمة إبراهيمية بامتياز؛ أزمةٌ تُنبئ بقرب حلول الدينونة الأخيرة (القيامة). إن القرار الجسيم الذي تقتضيه أزمة كهذه ليس أقل من فعل إعتناق ؛ إذ يفرض هذا الاهتداء نفسه باعتباره الشرط الوحيد والحتمي للخلاص[2]. وقد يتساءل المرء عن سبب هذا الإصرار المسياني على الاهتداء وهو إصرار تشترك فيه التقاليد الدينية الإبراهيمية الثلاثة، التي تتسم جميعها بالتوحيد وبنزعةٍ حصريةٍ خاصة بكل منها؛ إصرارٌ هو لاهوتي وسياسي في آنٍ واحد. أليس السبب هو أن كل اهتداءٍ إبراهيمي، في نهاية المطاف، يتمثل في اختيار المرء لـ "المسيح الدجال" الخاص به؟

الغريب في الأمر - وإن كان ذلك بلا شك بسبب طابعها المسياني - أن أزمة اليوم تعيد إنتاج النمط القديم نفسه. فهي تضع الخاضعين لها أمام الخيار نفسه والمعضلة ذاتها. في الواقع، كل من تدعوهم الأزمة إلى الاعتناق يصبحون من رعاياها. فالمسلمون واليهود، سواء بالانتماء العرقي أو الثقافي، وسواء كانوا متدينين أو علمانيين، حداثيين أو حتى حداثويين قد حددت لهم الأزمة هويتهم الإسلامية أو اليهودية وكأن الأمر عملية "تغيير" عقائدي. ورغم أن ذلك الخيار الأولي كان حتمياً، إلا أنه اتسم ببساطة قسرية صارمة: إما الإعتناق ، أو إنكار وجود الأزمة من الأساس.

"نحن" من بين أولئك الذين اختاروا عدم إنكار الأزمة، من خلال افتراض تأثيرها على الذات. لكن بدا لنا من الخارج أن الخيار الحقيقي كان مخفياً وراء البساطة البريئة للطرف الآخر من المعضلة؛ وأن هذا الطرف تحديداً هو الذي تتركز فيه كل المخاطر وكل سبل الخلاص التي تخبئها لنا أزمة من هذا النوع. فالسؤال الجوهري برمته هو: الاعتناق بماذا؟

هل يعود ذلك إلى سلسلة الأحكام المسبقة المرتبطة بصفات «اليهودي» و«الإسلامي»؟ أم إلى التصور السائد عن الإسلام واليهودية كديانتين، وإلى الأشكال الخطابية التي فرضت نفسها تاريخياً على لاهوتهما أو تقاليدهما الفكرية؟ أم إلى النظرة إلى العالم التي يتبناها غالبية من يحملون لقب «يهودي» أو «مسلم»؟ في هذه الحالة، لن يعني الاعتناق سوى اختيار الطريق السهل للإجابة على الأسئلة بإجابات جاهزة، متوفرة من الماضي ومن قبل الأجداد. الإيمان

[2] للاطلاع على العلاقة بين الأزمة المسيانية (بالمفهوم الكتابي) والاعتناق، انظر: راينهارت كوزيليك، "الأزمة" (Crisis)، ترجمة ميكاييلا دبليو. ريختر، *مجلة تاريخ الأفكار* (Journal of the History of Ideas)، المجلد 67، العدد 2 (2006)، ص 357–400. أما في السياق الإسلامي، فيظل الأمر ذاته من حيث الجوهر؛ انظر: فريد إم. دونر، *محمد والمؤمنون: في أصول الإسلام* (Muhammad and the Believers: At the Origins of Islam)

بالكلمة المتوارثة كمفتاح لفك رموز الأزمة، وبمستقبلها الموعود ؛ الإيمان في أعماق النفس بمسيح إلهي سيظهر على الأنقاض باعتباره المخلص الوحيد. الإيمان بكل هذا، في الحقيقة، لتجاوز الأزمة، لنسيان رهاناتها الحرجة بشكل ملموس، نسيان النقد ببساطة للالتجاء وراء الكلمة المهيمنة المنقولة باسم التقاليد، والذاكرة الجماعية،بل حتى باسم وحي أزلي. الاعتناق الذي صيغ في هذا المعنى التقليدي نفسه والمرتبط المسيانية الإبراهيمية، يخفي في طياته شيئاً عدوانياً بشكل أساسي: الاعتناق من أجل تكوين مجتمع، وتشكيل معسكر، وتشكيل جبهة مع أعضاء مجتمعه وبجانبهم،؛ وفقاً لاختيارهم. والهدف النهائي، كما نعرفه مسبقاً: تحديد العدو،واختيار المسيح الدجال.

وبتفسيرهم للاعتناق بهذا المعنى، فإن أولئك أنفسهم الذين كانوا ينددون ويشجبون بظلم القوى الإمبريالية والاستعمارية، لم يلتجأوا إلى التقاليد الإسلامية فحسب، بل إلى الأصوات المهيمنة التي تتحدث باسمها. وقد رأينا كيف تبنوا، باسم المقاومة، قراءتها الأكثر رجعية التي شكلت مصدرًا لجميع أنواع الظلم. أو أن أولئك أنفسهم، الذين كانوا يملأون آذاننا، في خطبهم ودروسهم، بجمال الموقف النقدي الذاتي الجذري لأنبياء إسرائيل، تحولوا، في أعقاب هذه الأزمة، إلى مدافعين أقل حياءً عن كل ما ارتكبه دولة إسرائيل من أسوأ الأفعال. كانوا يريدون الحفاظ على الصوت النقدي داخل مجتمعهم؛ لكن من خلال التحاقهم و تحولهم، أصبحوا مجرد صدى، بل وتعزيز الأصوات الصاخبة والأكثر حدة وهيمنة، حتى عندما تُعبّر هذه الأصوات عن ميول فاشية.

* * *

أما خيارنا فهو مختلف. لم يُقصد، كما قيل للتو، أن نبقى غير مبالين تجاه ما تفرضه الأزمة، وتجاه الخطر والوعد «المسياني» اللذين تحملهما في طياتها. لكن الخطأ الفادح الذي يجب تجنبه يبدو لنا أنه يكمن في ذلك بالذات. أن ننسى، في خضم أزمة ملحة، الخيار الأساسي: ما المعنى الذي نمنحه للاعتناق نفسه؟ سؤال قادنا إلى الاستنتاج التالي: إذا أخذنا الاعتناق بمعناه الأصلي والمقدس، فإنه يقترن بالكارثة، بالهمجية المتمثلة في مطاردة المسيح الدجال، فإن كل بدوره يُعتبر نازياً.

وعليه، فنحن أولئك الذين قرروا -قبل الإقدام على "الاعتناق" التوقفَ ملياً أمام سؤال "ما هو الاعتناق؟" بغية إعادة صياغته في ضوء الأزمة الراهنة. ولقد توصلنا -بمعزل عن توجهاتنا ومواقفنا ومساراتنا المتباينة، ومهما كانت علاقتنا باليهودية والإسلام، إلى النتيجة ذاتها: ثمة خيار واحد مفيد، يتمثل في إعادة تعريف "الاعتناق" عبر قلب المعنى الذي تمليه عليه التقاليد الإبراهيمية رأساً على عقب. وباختصار، فإن الاعتناق الوحيد الذي يرقى إلى مستوى رهانات هذه الأزمة ليس -في نظرنا- سوى "مناهضة الاعتناق" (anti-conversion). عند هذه النقطة يكمن الإنقسام الحاسمة: بين أولئك الذين تدفعهم الأزمة لاتخاذ قرار " الاعتناق"، وبين أولئك

الذين يسلكون المسار المغاير المتمثل في "مناهضة الاعتناق"، وكأنهم بذلك يسعون لتقويض الطابع الكارثي (أو النذير بنهاية العالم) للأزمة.

بهذا المعنى، لا تعدّ "مناهضة الاعتناق" (anti-conversion) مجرد نفيٍ لهذا الاعتناق فهو لا يتماهى مع الإرتداد عن الدين ولا مع الإلحاد، كما أنه ليس عودةً إلى اليهودية والإسلام ولا رفضاً لهما. فمن خلال حركتها العرضية وغير المباشرة، تعمل هذه المناهضة على خلخلة الثنائية الموجودة وقطعها بشكلٍ مائل، إذ تهدف إلى تعطيل الحدود الفاصلة بين الداخل والخارج. إننا نضع نصب أعيننا - كأولوية تسبق وتتجاوز كل ما عداها - مهمةَ إعادة ابتكار الرابط الذي يجمع كلاً منا باليهودية أو بالإسلام؛ نعم، إنها دعوةٌ لاستثمار وتسخير التقاليد الفكرية اليهودية والإسلامية، بل ومحاولة إعادة توظيفها، لا طلباً للملاذ فيها، بل سعياً لاستنباط موارد جديدة منها. وهكذا يفرض خيار "مناهضة الاعتناق" نفسه علينا؛ باعتباره الموقف الملائم لفكرٍ حر - حرٌ تماماً - ومنخرطٌ في الوقت ذاته في خضم هذه الأزمة.

إن المقارنة بين التقاليد اليهودية و الإسلامية، وجمعهما معاً ووضعهما جنباً إلى جنب وفي مواجهة بعضهما البعض؛ هي مقاربات نتبناها عن طواعية و قصد. ولا نقوم بذلك بغية استخدام أحدها سلاحاً ضد الآخر، بل لإثارة النزاع في صميم كل منهما. فمن الذي ينتقد تقليداً ما باسم تقليد آخر فقط، والذي يستشهد "باليهودية" لإدانة "الإسلامية" أو العكس إنما يمارس فعلاً من أفعال "الاعتناق". أما من يختار مسار "مناهضة الاعتناق"، فإن نقد أحد التراثين لا يمكن أن يمضي قدماً دون نقد الآخر؛ إذ يعمل الناقد هنا على إدخال اليهودي في الإسلامي والعكس، وكأن كلاً منهما يمثل أداةً (أو حافزاً) للنقد الذاتي للآخر.

نرى كيف تسعى "مناهضة الاعتناق" -من هذا المنظور- إلى إعادة إحياء التقاليد الفكرية اليهودية والإسلامية؛ إذ تفضي هذه العملية إلى فرز عناصر كل تقليد واتخاذ خيارات من ضمنها لا تؤدي إلى الكارثة. بل على العكس من ذلك، ومن أجل بلورة استجابات جديدة، يعمد "مناهض الاعتناق" إلى تكثيف التحركات الجانبية من داخل ذلك التقليد. وإذا كان يسعى بذلك إلى استعادة تقاليدها، فلأنه يريد انتشالها من حالة الجمود عبر دفعها عمداً عن مساراتها المعتادة؛ أي إعادة توجيهها في تحدٍ للمسار المهيمن الذي تفرضه جموع المعتنقين جيلاً بعد جيل. وفي مواجهة صخبهم وهتافاتهم، يطرح "مناهض الاعتناق" صوتاً هامشياً -صوتاً معارضاً يخصه وحده، كما لا يمكن لأحد إنكار انتماء هذا الصوت إلى ذلك التقليد.

ألا يتطابق هذا الاختيار الداخلي (الهرطقة)، وهذا الابتكار (الإبداع)، وهذا الخروج عن العقيدة (الإلحاد)، تماماً مع ما استُبعِد دائماً باسم الهرطقة من التقاليد اليهودية والإسلامية، ناهيك عن تاريخه المسيحي المديد؟ تكمن خطيئة المهرطق تحديداً في عدم تخليه عن خياره الداخلي؛ فمشكلته لا تكمن في كيفية الخروج من تقليد أو دين أو عقيدة؛ إذ إن خطوة كهذه لا تعجز عن حل أزمته الشخصية فحسب، بل تقوّض حريته برمتها. إن الهرطيق أشبه بالقط: فما يزعجه هو الأبواب والحدود والحواجز، وهو لا يروق له أن يُرسم له مسار تحركاته مسبقاً.

إن الاعتناق هو خيار أولئك الذين -مهما كانت مظاهرهم الخارجية- هم أناس ذوو إيمان، بل وحتى ذوو خرافات ومعتقدات؛ فهم يؤمنون بوجود خلاص نهائي لهم ولأمثالهم من المعتنقين. وهم يؤمنون -إيمانًا دينيًا- بأنه لا سبيل أمامهم، سوى الصمود في وجه "المسيح الدجال" وخوض معركة ضده إلى حين حلول ذلك الخلاص، مستعينين بدولهم و قنابلهم الذرية وقاذفاتهم وصواريخهم؛ وهي في حقيقتها ليست سوى تجليات لـ "الكاتيكون" (الكابح لظهور المسيح الدجال) في ثوبها المموّه أو مجرد أصنام مقدسة. وفي المقابل، فإن "المفكر الحر" الحقيقي هو من يمارس فعل مناهضة الاعتناق؛ أي "الهرطيق". إنه يوظف حريته لمقاومة الوحدة المهيمنة لتقاليده[3]؛ إذ يتمثل نضاله في إزالة العناصر التي يرى أنها تتعارض مع الحقيقة وخلاص الجميع، ولتلك الغاية، لا يدأب عن الإستمرار في تفكيك تقاليده تلك.

في مواجهة هيمنة الصوت الغالب للمعتنقين، نتبنّى الطابع "الهرطقي" لمواقفنا المناهضة للاعتناق وهي مواقف تتسم، بحكم تعريفها، بالتشتت والانتماء إلى "نبرة صغرى" (أو هامشية) ذات نطاق ضيق. إن من يعتنق ينضم إلى طاقم، أو فرقة، أو حشد حتى وإن كان هذا حشد أقلية. وفي المقابل، يمثل الموقف المناهض للإعتناق حالة من الانفصال أو الخروج عن السائد. هل هي الأغلبية العددية أم الأقلية العددية؟ لا يكف المناهض للاعتناق عن الحذر إزاء هذه المعضلة؛ فما يهمه — بصفته هرطقياً حقيقياً — هو تنمية صوته "الصغير" (أو الهامشي) أياً كانت المجموعة التي يجد نفسه فيها. وهو يحرص، قبل كل شيء، على ألا يخلط بين هذا الصوت "الصغير" وصوت الأقلية. إن مناهضة الاعتناق هي، بحكم تعريفها، فعلٌ منفرد ؛ ومهما بدا الأمر متناقضاً، فإن سياسة مناهض الاعتناق هي، في نهاية المطاف، سياسة الفرد المنعزل.

إن ما يحوّل هذا العدد الكبير من الأصوات الفردية إلى صيغة "نحن" يرتكز على قناعة واحدة: وهي أن الخيار الجوهري المطروح على كل من استنهضتهم الأزمة الراهنة بأحداث السابع من أكتوبر، وما يجري في غزة، والحرب المستمرة هو خيارٌ بين الهرطقة والهمجية. إن رفض ضرورة الهرطقة، تحت أي ذريعة كانت، هو في الواقع تكريس للهمجية.

[3] Marie-Dominique Chenu, "Orthodoxie et hérésie. Le point de vue du théologien,Annales. *Économies, Sociétés, Civilisations*, 18th year, no. 1, 1963, p. 75